وصية جامعة للأطباء، وطلبة العلم*

عبداللطيف البغدادي (ابن اللباد)**

يقول: «وينبغي أن تكثر اتهامك لنفسك، ولا تحسن الظن بها، وتعرض خواطرك على العلماء، وعلى تصانيفهم، وتتثبت ولا تعجل ولا تعجب، فإن مع العجب العثار، ومع الاستبداد الزلل، ومن لم يُعرق جبينه إلى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس، ومن لم يبكتوه لم يسوّد، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح. وإذا خلوت من التعليم والتفكير، فحرك لسانك بذكر الله وبتسابيحه، وخاصة عند النوم فيتشربه لبُّك، ويتعجن في خيالك، وتتكلم به في منامك، وإذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا، فاذكر الموت وسرعة الزوال، وأصناف المنغصات، وإذا حَزَبَك أمر فاسترجع. وإذا اعترتك غفلة فاستغفر، واجعل الموت نصب عينيك، والعلم والتقى زادك إلى الآخرة، وإذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكاناً لا يراك فيه.

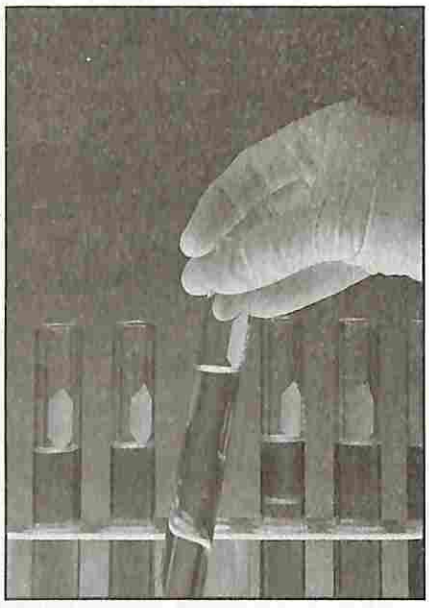

واعلم أن الناس عيون الله على العبد، يريهم خيرُه وإن أخفاه، وشره وإن ستره، فباطنه مكشوف لله، والله يكشفه لعباده، فعليك أن تجعل باطنك خيرا من ظاهرك، وسرك أصح من علانيتك، ولا تتألم إذا أعرضت عنك الدنيا، فلو عرضت لك لشغلتك عن كسب الفضائل، وقلما يتعمق في العلم ذو الثروة، إلا أن يكون شريف الهمة جدا، أو أن يثري بعد تحصيل العلم، وإني لا أقول: إن الدنيا تعرض عن طالب العلم ،بل هو الذي يعرض عنها، لأن همته مصروفة إلى العلم، فلا يبقى له التفات إلى الدنيا، والدنيا إنما تحصل بحرص وفكر في وجوهها، فإذا غفل عن أسبابها لم تأته، وأيضا فإن طالب العالم تشرف نفسه عن الصنائع الرذلة، والمكاسب الدنيئة وعن أصناف التجارات، وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم، ولبعض إخواننا ... شعر.

من جدّ في طلب العلوم فإنه
شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج إلى فراغ لها، وحذق فيها، وصرف الزمان إليها، والمشتغل بالعلم لا يسعه شيء من ذلك، وإنما ينتظر أن تأتيه الدنيا بلا سبب، وتطلبه من عبر أن يطلبها طلب مثلها، وهذه ظلم منه وعدوان، ولكن إذا تمكن الرجل في العلم، وشهر به خطب من كل جهة، وعرضت عليه المناصب، وجاءته الدنيا صاغرة، وأخذها وماء وجهه موفور، وعرضه ودينه مصون. واعلم أن للعلم عبقا وعرفا ينادي على صاحبه، ونورا وضياء يشرق عليه، ويدل عليه، كتاجر المسك، لا يخفى مكانه، ولا تجهل بضاعته، وكمن يمشي بمشعل في ليل مدلهم، والعالم مع هذا محبوب أينما كان، وكيفما كان، لا يجد إلا من يميل إليه، ويؤثر قربه ويأنس به، ويرتاح بمداواته.

واعلم أن العلوم تفور ثم تغور، تفور في زمان، وتغور في زمان بمنزلة النبات أو عيون المياه، وتنتقل من قوم إلى قوم ومن صقع إلى صقع.

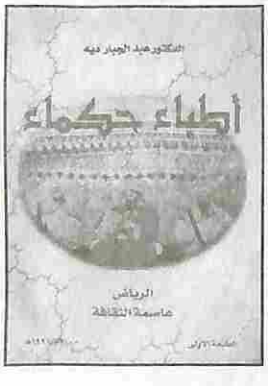

* من كتاب: أطباء حكماء
ص ٣٤ - ٣٨
تأليف د. عبدالجبار دية.

** هو الشيخ الإمام موفق الدين أبو الفضل عبداللطيف بن يوسف، ويعرف بابن اللباد، موصلي الأصل، بغدادي المولد سنة ٥٧٧هـ كان طبيباً، ومتميزاً في النحو والعربية، وعارفاً بعلم الكلام، بلغ عدد مؤلفاته مئة وسبعين كتاباً، توفي في بغداد سنة ٦٢٩هـ.